لاون الثالث عشر والهيئة الاجتماعية

للاب جرجس تريبوله اليسوعي

قال المسيح جلَّ من قائل لتلاميذه: « انتم ملح الارض . انتم نور العالم » فخوَّلهم بذلك سلطاناً عظيماً يتناول كلَّ المال والشعوب فضلاً عن الكنيسة وابنائها المؤمنين فجعلهم كحرَّاس يسهرون على خير الامم ويحافظون على اركان المجتمع البشري وينفون عنهُ كلَّ اسباب الفساد

على انَّ هذه المهمَّة الكبرى منوطة ببطرس وخلفائه اكثر منها باخوته الرسل لانهُ راعي الرعاة ونائب ذاك الذي « أُعطي الأُممَ ميراثاً واقاصي الارض ملكاً » (مزمور ٢ : ٨) فعليهِ تدور دائرة المعاملات وبهِ تتَّصل سلسلة النظام البشري فاذا أُصيبت الهيئة الاجتماعيَّة باذًى بادر الى اصلاحهِ لئلا يتسع الخرق ويُثلَّ عرش المدنيَّة

والحقُّ يقال انَّ لاون الثالث عشر لمَّا استوى على منصَّة الملك وجد العالم على قاب قوسين من هبوطهِ لما ثار فيهِ من الاهواء الباطلة وعصف من ريح الفتن التي نفخ بها شيطان الثورة منذ اواخر القرن الثامن عشر فامتدت في كلِّ الانحاء ولم يزل الشرّ يتفاقم والفساد يستفحل حتى انحلَّت روابط الألفة وانتقض ركن السلطة وبطلت الامانة بين المتعاملين ولعبت في الرؤوس خمرة الحريَّة الموهومة فكاد اختلال النظام يفضي بالمجتمع الانساني الى الاضمحلال والفناء

تلك كانت حالة العالم اذ سمع لاون صوتَ الرب يقول لهُ ما قالهُ سابقاً لنبيه ارميا (١ : ١٠) : « انظر اني أقمتك اليوم على الامم والممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبني وتغرس » فباشر منذ بدء ضبطهِ

امتان الملك باقتلاع الاضاليل وهدم صرح الاوهام ونقض بناء التعاليم الفاسدة واشهر حربًا عوانًا على الآراء الباطلة التي نشرها الكفرة والملحدون وسدَّد سهامهُ الصائبة على اكاذيب الإباحيين والاشتراكيين ونددَّ بالماديين الزنادقة وكشف القناع عن شنائع الجمعيات السريَّة التي لا تتستَّر الَّا لاجراء مقاصدها وترويج مفاسدها لانَّ « الذي يصنع الخطيئة يخاف من النور » كما قال الربّ

ولمَّا كان النظام البشري يتركَّب من افراد وعيال وجماعات ودول وكان لكل هؤلاء واجبات وحقوق لا ينتكث حبلها دون ان تصاب الهيئة الاجتماعيَّة بشرور تؤدي بها الى الاضمحلال صرف نائب المسيح نظرهُ الى كلّ قسم من هذه الاقسام وذكَّرهُ بفرائضهِ المحتومة عليهِ ودافع عن حقوقهِ لئلا ينفرط سلك الاجتماع البشري وتفقد الامم قوامَ وجودها الذي يتوقَّف على هذه العلائق المتبادلة بين اطوار الألفة الاجتماعيَّة

وبدأ قداستهُ بالأفراد لعلمهِ بما في قلوبهم من الحزازات على النظام الألفي الذي افشل قواهم وكسر في عضدهم يوم حلَّ ما كان بينهم من روابط الاعتصاب وأواخيّ الائتلاف. فانجز لارن الثالث عشر في شخصهِ ما قالهُ الشريف الادريسي عن اسلافهِ (راجع المشرق ٥ : ٢١١) « فحكم بالحق وتحرَّى المظالم ورفق بالضعفاء والمساكين ونفى الضيم عن المهتضمين » وكتب تلك الرسالات العجيبة التي دافع بها عن حقوق الافراد ومنع اصحاب الثروة من ان يسوموهم خسفًا. وقد اصدر رسالتهُ الاولى في هذا المعنى السنة الاولى لحبريَّتهِ وبدؤها بهذه الالفاظ " Quod Apostolici " بيَّن فيها بادلَّة ساطعة ما للأفراد من الحقوق عند اربابهم وما يتحتَّم عليهم من الفروض والواجبات نحوهم

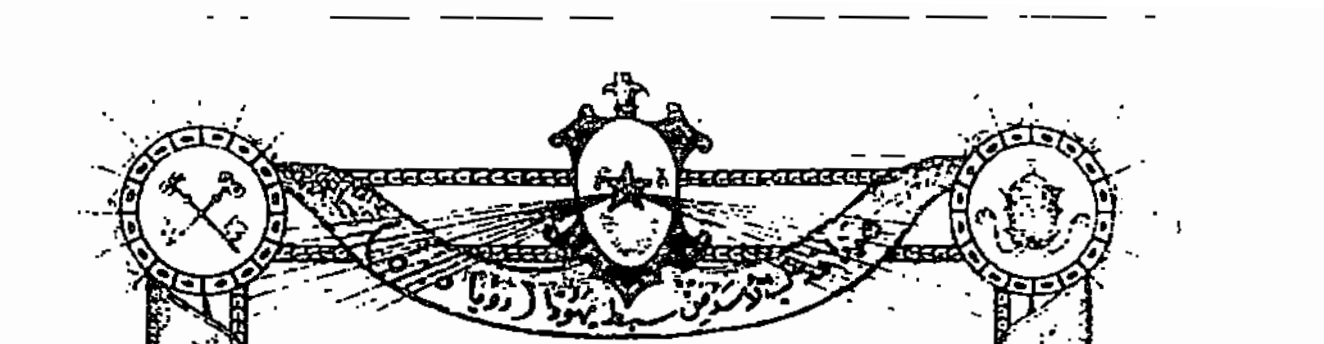

فحرّض اصحاب الثروة الّا يتضوا حرمة الصفار ويحرموهم اجرة عادلة على اتعابهم وحظر على العملة انتهاك املاك ساداتهم وفنّد اراجيف الاشتراكيين وترّهات الاباحيين

وعاد الاب الاقدس الى هذا الموضوع مرارًا عديدة في رسائله العامّة لاسيما في رسالته « Rerum novarum » سنة ١٨٩١ التي وجّهها الى الفعلة وحدّد فيها ما يحلّ لهم ويحرّم عليهم. فكانت هذه الرسالة احسن دستور يمكن الأفراد ان يجروا عليه. ولذلك قد اطنبت كلّ الدوائر السياسيّة والمجلات الكاثوليكيّة وغيرها على سموّ مدارك الاب الاقدس واقرّوا علنًا بانهُ فكّ المشكل على وجهٍ مرضيّ للغاية. امّا العملة فدعوهُ منذ ذاك الحين « بابا الفعلة » واخذوا يحجّون الى الڤاتيكان زوافات ليعاينوا سجينهُ ويشكروهُ على انتصاره لحقوقهم. وقد بلغ عدد الذين قدموا عليه لهذه الغاية فوق مئتَيْ ألف

ومما يلحق باهتمامه في تهذيب الافراد ما كتبهُ عن الحرّية في رسالته « Libertas » سنة ١٨٨٨ فاوضح بسداد عجيب ما هي الحرّية ونفى عنها معانيها الكاذبة واثبت انّ الحرّية في صنيع الشرّ ليست بحرّية بل هي العبوديّة نفسها وفقًا لقول الرب (يوحنّا ٨ : ٣٤) : « من يفعل الخطيئة هو عبد للخطيئة » وانّما الحرّية هي الاختيار بين ضروب الخير وانواع عمل الصلاح

على ان الحبر الروماني لم يشأ ان تبقى الاجسام نفسها مستعبدة وقد سلك بذلك على طريقة اسلافه الذين لم يزالوا يسعون في ابطال النخاسة. وقد اوضح لاون الثالث عشر عن فكره هذا في رسالته In « plurimis سنة ١٨٨٨ الى اساقفة البرازيل لمّا أُلغيت تجارة الرقيق

في تلك البلاد وكان لدُعاة الدين في هذا الامر الخطير يد مشكورة

ثمَّ صرف اسير الفاتيكان نظرهُ الى مجاهل افريقيـة حيث النخاسة كانت ضربت باطنابها منذ زمن مديد فبيع ألوف وربوات الوف من البشر كما تُباع السلع. فقوَّض الحبر الاعظم الى الكردينال لافيجري الذائع الشهرة بان ينـادي بين الشعوب المتمدنة ويدعوها لابطال هذه الفظائع. ولمَّا رأى الدولَ متأثرة مما بلغهـا من توحُّش النخاسين كتب تلك البراءة ذات المعاني الشَّريفة والمدارك السامية التي اصدرها في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٨٩٠ فكانت ضربةً لازبة على بيع الرقيق. ومذ ذاك الوقت اتَّفقت كلمة الدول على منع هذه التجارة المستقبحة التي تحطّ بشأن البشر وتنزلهم منزلة البهائم وقد خلقهم الله احرارًا متساوين بحقوق الانسانيَّـة. وعزَّز لاون في ذلك الوقت الرسالات الافريقيَّة وجعل لها شفيعاً في مصفّ اولياء الله القديس بطرس كلافر اليـوعي الذي صبغ في القرن السابع عشر بمياه المعمودية اكثر من ٣٠٠,٠٠٠ من الزنوج العبيد

وما صنعهُ قداسة الحبر الاعظم نحو الافراد شفعهُ باعمال اثيرة نظَّم فيها العيشة العائليَّة. واذ علم قداستهُ انَّ تهذيب الاحداث اكبر داعٍ لحسن نظام العيال المسيحيَّة سعى سعياً لم يُضجرهُ الملل بتربية الصغار. وقد استلفت انظار ارباب العائلة الى هذا الامر في اوَّل براءة عموميَّة اصدرها بعد جلوسهِ السعيد على كرسي بطرس وكرَّرهُ في براءاتهِ التالية

ومن اركان العيشة العائليَّة سرّ الزواج المسيحيّ المبنيّ على قول الرب (متى ١٩: ٦) «ما جمعهُ الله فلا يُفرقهُ انسان» وقد استفرغ سيد الاحبار كنانة جهدهِ في تعريف خواص الزواج وما يؤول اليهِ

هذا السرّ اذا ما اخترق الازواجُ سُننَ الكنيسة فيذهب كلٌ من العروسَين في سبيلهِ وتتضعضع العائلة وينشأ الصغار على خرق الآداب وسوء السيرة. وهذا الموضوع قد خاض فيهِ لاون الثالث عشر اربع دفعات بيد انهُ قد اتّسع فيهِ في رسالتهُ عن الزواج المقدس (Arcanum) سنة ١٨٨٠ فبيّن ما لهُ من القوّة في حلّ المعضلات وفكّ عُقدها

ولتعزيز روح العائلة قد نشر ابو المؤمنين عبادة الورديّة المقدسة وكتب في ذلك رسالات طافحة بالتقوى والغيرة الرسوليّة. وكذلك قد اثبت شركة العيلة المقدسة وامر الاساقفة بحضّ المؤمنين عليها ليتخذوا من يوسف ومريم ويسوع مثال الفضائل العائليّة التي ينبغي عليهم ممارستها

هذا وان الاب الاقدس لم يقتصر عنايتهُ بالهيئة الاجتماعيّة في ترتيب حقوق الافراد وتحسين العيشة العائليّة وانّما صرف همتهُ الكبرى الى الالفة المدنيّة والجماعات الدوليّة. واول ما لحظ انّ الرعايا لم تعُد تعتقد لاصحاب السلطة ما يقتضيهِ مقامهم من الاكرام والخضوع وما ذلك الّا لانّ روح العصر قد اضحى روح تسافر يظنّ الشعب انهُ هو مصدر السلطة يفوّض بها الى من يشاء. وقد نشأ عن هذا الظن السيّئ شرور لا تُحصى رفعت لا تُعدّ قترى البلاد في تقلبٍ دائم وفي فوضى متواليـة. بل اتصلت ببعضهم القحة الى ان تطاولوا على ولاة امرهم فجنوا على حياتهم

فساءت هذه الحال لاونَ الثالث عشر ولم يجد اشدّ زاجر للناس من هذه العقيدة الباطلة من ان يبيّن لهم اصل السلطان ومصدرهُ. فكتب في ١٨ اذار سنة ١٨٨١ بعد موت القيصر اسكندر الثاني براءتهُ الخالدة الذكر التي بدؤها (Diuturnum) اثبت فيها بادلّة نقليّة

وعقليّة بانّ كلّ سلطة من العلى وانّ السلطان ظلّ الله في ارضه وان الرعايا ليس لهم منهُ حصةٌ وان امكنهم في بعض الاحيان ان يعيّنوا الشخص الذي يتولى هذه السلطة شرعيًا. واذا عيّنوهُ فليس لهم سبيل الى نقض سلطتهِ

فما برزت الرسالة البابويّة حتى صفّق لها العالم استحسانًا وتلقّاها الملوك بما لا مزيد عليهِ من التجلّة والاعتبار ولم يكتفِ قيصر روسيّة اسكندر الثالث بقبولها من الحبر الروماني شاكرًا بل وزّع نُسخًا منها بيدهِ على حاشيتهِ

وما مرّ على هذه الرسالة اربع سنوات حتى ألحقها حبر الاحبار برسالة اخرى ليست اقلّ منها شأنًا (Immortale Dei) بحث فيها عن العلائق بين الكنيسة والسلطة الزمنيّة وقد اسهب في بيان حاجة السلطة الزمنيّة الى الكنيسة لانّ الكنيسة حارسة الدين والدين هو سالك النظام الاجتماعي لن يستحكم اساسُ التمدن دونهُ البتة وعليهِ فقد كذب من اعتبر الكنيسة كخصم للسلطان الزمني وانما هي بالنسبة اليهِ بمثابة النفس الى الجسد تحييهِ وتصونهُ من الاخطار المحدقة بهِ

ومن الخدم التي ادّاها لاون الثالث عشر للهيئة الاجتماعيّة انه كافح بكلامهِ وقلمهِ تلك الشيع الجهنميّة التي جعلت غايتها المقوتة دكّ دعائم السلطة الشرعية. ولو عدّدنا خطبهُ في رذل هذه الجماعات لطال بنا الكلام. وقد خصّص الاب الاقدس تمديدهُ بالجمعيّات السرّيّة والشيع الماسونيّة واثبت بشهادات اصحابها ان قصارى بغيتها نقض كلّ دين وسلطان. واشهر رسالات قداستهِ في هذا الشان صدرت في ٢٠ نيسان سنة ١٨٨٤ فنشرناها في وقتها بالطبع على حدة في مطبعتنا الكاثوليكيّة

ومن مساعيهِ ايضًا في خير الدول جمعاء انهُ كثيرًا ما جدّ وكدّ في نشر الصلح بين الدول الاوربيّة ونزع الاسلحة لتعيش الامم في الألفة

والسلام. وقد ظهر ذلك بنوع خصوصي في مؤتمر الصلح الذي عُقد في هولاندة سنة ١٨٩٩ فان ملكة هذه الدولة اقرّت في رقيمها الى سيد الڤاتيكان انّهُ احقُّ من غيرهِ بتوطيد السلام بين الدول الاوربيّة

وبعد ان وجّه قداسة امام الاحبار همّتهُ الى الممالك اجمالاً نراهُ مهتمًّا بكل دولة كأنّهُ لا همَّ لهُ سواها. وكلُّ من يطالع رسائلهُ الى الفرنسويين والبلجيكيين والاسبانيين والطليان والالمان والاميريكيين لا يشكُّ في انَّ قلبهُ الابوي يعزُّ كل الدول دون استثناء. لا يريد غير خيرها الاعظم وترقيها في سبل النجاح فلا عجب بعد ذلك ان استأسر سجين الڤاتيكان بحبهِ قلوب الامم جمعاء. فالتجأت اليهِ تترى في فضّ مشاكلها وحلّ معضلاتها

وكنّا رددنا لو سمح لنا المقام ان نذكر الجمعيات الخيريّة والمشروعات المبرورة التي انشأها الحبر الاعظم في كل بلد لخير الافراد والعيال ولصالح كلّ طور من اطوار الاجتماع الانساني إذن لرأى ما يدهش الالباب ويحيّر القلوب. فان الحسنات التي يوزّعها الكرسي الرسولي وحدهُ على العملة والفقراء والمرضى والمنكوبين وفي افتداء العبيد تبلغ نحو خمسة ملايين من الفرنكات في كل سنة. وقد انهض قداستهُ همم الكاثوليك لمَّا جعل لهم شفيعاً ذلك البطل الهمام رجل الخير العميم ومثال النزاهة والتفاني القديس منصور دي بول منشئ الجمعيَّة اللعازريَّة وأخوات المحبَّة

وفي الختام لا يسعنا الّا ان نصرخ فليحيَ لاون فانهُ حقيقةً ملاذ الامم وسند الشعوب فطوبى للدول التي تسمع صوتهُ فانَّ فيهِ صحَّ قول ملكة سبا لسليمان الحكيم (٢ اخ ٩: ٨) «تبارك الربُّ الهك الذي رضي منك واجلسك على عرشهِ ملكًا للرب الهك فانهُ لاجل حبّ الهك لاسرائيل ليثبتهم الى الابد اقامك ملكًا عليهم لتجري الحكم والعدل»